يوميات متقاعد بعد نزول الراتب

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 9 مايو 2021

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

ذهب المتقاعد (عبد اللّه) قبل أسبوع من تسلم الراتب، إلى الصراف الآلي في البنك وحاول أن يسحب بضع الدنانير التي كان يتوقع أنها مازالت في الحساب، ولكن يبدو أن الصراف الآلي سخر منه، فأخرج رصيدًا ورقيًا مكتوبًا فيه وعليه (لا يوجد رصيد)، حاول المتقاعد عبد اللّه أن ينظر إلى المتبقي من رصيده فوجد فعلاً أن المبلغ المتبقي لا يفي بأي احتياجات المنزل، بضعة دنانير قليلة جدًا.

التفت إلى الخلف حياءً من الناس الواقفين خلفه في الطابور، حتى لا يظنوا أنه محتاج إلى بضعة دنانير، ابتسم خجلاً وكأنه كان يحاول أن ينظر إلى الرصيد أو كأنه كان يحاول أن ينجز معاملة بنكية، فأخذ الرصيد ووضعه في جيبه وانصرف، ركب سيارته القديمة التي تنافسه في العمر، وذهب يتجول في الشوارع وهو يفكر، من أين آتي بالمال حتى أجلب مستلزمات المنزل واحتياجات الأسرة لهذا الأسبوع ؟

حمل ثقيل، ترى ماذا يمكن أن يفعل ؟

ثم أقنع نفسه بأنها مجرد بضعة أيام وينزل الراتب، وبعدها يمكن شراء كل شيء، حسنٌ كل الأمور يمكنها أن تتأجل، لماذا الاستعجال ؟

أنقضى الأسبوع وكأنه دهر، لا يوجد شيء من مستلزمات الحياة في البيت، ما عدا بعض الأمور الأساسية، مثل الأرز والعدس والزيت والسكر وما إلى ذلك، بالإضافة إلى وجود فاتورة كهرباء مستحقة السداد لم يتمكن من سدادها بعد وفيها تهديد بقطع التيار إن لم يتمكن من السداد خلال الأيام المقبلة، وأما بقية الأمور فكلها طيبة، ففي الأيام المقبلة سيتمكن من سداد كل تلك الأمور حتى لا تتراكم.

آه، ثم تذكر فذّكر نفسه «هناك أيضًا المبلغ الذي اقترضته من الخادمة هذا الشهر، يجب أن أعيده إليها»، ثم قال في نفسه «يجب ألا أفكر كثيرًا، فغدًا الراتب، وكل الأمور تهون ويتم سدادها».

في الغد، نظر إلى حسابه البنكي عبر تليفونه النقال، جميل المبلغ كامل، ما عدا الزيادة السنوية، فقد تم إلغاء الزيادة السنوية التي كانت تؤخذ من راتبنا على اعتبار أن تقوم الدولة باستثمار هذا المبلغ لنا وتعيده لنا في التقاعد، «ها نحن تقاعدنا ولكن لم نستلم الزيادة السنوية، لأن الصناديق الاستثمارية اوشكت على الافلاس، طيب ما ذنبي أنا ؟»، ثم قال في نفسه «دعني استمتع بضعة أيام بوجود الراتب في حسابي، وعلى الأقل يومًا أو يومين، مجرد شعور أنه لدي مبلغ من المال، وبعد ذلك سأقوم بسداد المبالغ المتراكمة، مجرد أيام».

أنقضى اليومان بأسرع من سرعة البرق، فلم يستمتع المتقاعد عبد اللّه، وبعد يومين أخذ ورقة وقلمًا وبدأ يسجل المبالغ التي يجب أن يسددها، المبلغ الفلاني سداد قرض البنك لبعض التصليحات في البيت وترميمه لأن الجهة المعنية رفضت منحه هذا القرض لذلك لجأ للبنك، المبلغ الفلاني لسداد قرض السيارة التي اشتراها لزوجته أو بالأحرى للمنزل والأسرة، المبلغ الفلاني لصاحب البقالة التي يأخذون منها بعض مستلزمات البيت ويتم الدفع الشهري له، المبلغ الفلاني للرجل الذي يغسل السيارات، المبلغ الفلاني للخادمة، المبلغ الفلاني راتب لابنه الذي لم يجد عملاً حتى الآن فهو خريج منذ ثلاث سنوات ومع ذلك لم يجد فرصة عمل، والمبلغ الفلاني لابنته التي لا تعمل على الرغم من أنها خريجة منذ أربع سنوات ومع ذلك فهي عاطلة عن العمل واليوم تحاول أن تخرج من هذه الشرنقة فذهبت لتدرس الماجستير في تخصص آخر لعل وعسى يمكنها أن تتوظف بشهادة التخصص الآخر، ثم سأل نفسه «هل أستطيع سداد دين الخادمة هذا الشهر ؟ لا أعرف» ثم ترك الموضوع جانبًا وتركها للظروف، ثم رجع إلى الورقة والقلم مرة أخرى، المبلغ الفلاني لسداد فاتورة الكهرباء، والمبلغ الفلاني لسداد فواتير التليفون، المبلغ الفلاني لشراء الأمور الأساسية المهمة جدًا – وفقط – من مستلزمات البيت والأسرة، واستمر يكتب ويعيد حساباته مرات ومرات، وفي النهاية صرخ فرحًا، «الآن أنا أفكر بعقلية التاجر، يمكنني أن أوفر بضعة دنانير كل شهر.. معقول !»، لم يصدق ما رآه في الورقة فأعاد حساباته عدة مرات وكانت النتيجة هي هي.

على الرغم من أنها بضعة دنانير لا تسمن ولا تغني من جوع، إلا أنه شعر أنه ثري، كيف حدث ذلك لا يهم ؟ ولكن الورقة والقلم يقولان ذلك.

بدأ المتقاعد عبد اللّه يسدد، لهذا وتلك الجهات والأفراد، والفرحة تغمره لأنه يمكن أن يوفر بضعة دنانير، وكلما سدد بعض الفواتير راح يعيد حساباته من جديد، خوفًا من الخطأ والتقصير، وهكذا لم تتته الأيام الخمسة من بداية الشهر حتى قام بتسديد كل ما عليه من ديون، فاستقرت نفسيته وارتاح باله.

بعد يومين من ذلك، عندما كان يحاول أن يخرج من البيت وكان يحاول أن يشغل السيارة وإذا بها لا تعمل، فالبطارية قد استهلكت، لذلك تحتاج إلى بطارية جديدة، «حسنٌ، لا توجد مشكلة، بطارية جديدة لا يهم، فإن ذلك أفضل من البطارية القديمة على الأقل تعطي عمرًا جديدًا للسيارة»، دفع مبلغًا لشراء البطارية الجديدة مع ضمان لمدة ستة أشهر فقط.

بعد يومين آخرين جاءته ابنته وتقول إن الجامعة من أجل إنجاز هذا الفصل كلفتنا بواجب، وهذا يكلف مبلغا وقدره (...)، فهل يمكن منحي هذا القدر من المبلغ، فنظر في عينيها وهو يتألم ويحدث نفسه «هل يمكنني أن أرفض لها مثل هذا الطلب فتنكسر ؟ وهي أساسًا محبطة لأنها لم تجد وظيفة بعد، ولكن من أين يمكن توفير هذا المبلغ ؟».

أتصل ببعض الزملاء والأصدقاء من هنا وهناك واستلف من هذا مبلغًا وقدره (...) ومن ذلك مبلغ وقدره (...)، ووضع بنفسه جزءًا من المال الذي لديه حتى تمكن من استيفاء المبلغ المطلوب، فانتهى موضوع البنت، فحمد اللّه وأثنى عليه.

ثم أتت الحاجة الفلانية، والحاجة الفلانية، وكل مرة يدفع من بقايا المال الذي أعتقد أنه يمكن توفيره، إلا أنه يصعب ذلك في ظل هذه الظروف.

نحن اليوم في الأسبوع الأول من الشهر، فنظر وأعاد حساب بقايا المال المتبقي، فوجد أن المبلغ قد انتهى تمامًا، وأن الصراف الآلي يخرج الرصيد الورقي الذي مكتوب فيه وعليه (لا يوجد رصيد).

ركب سيارته القديمة التي بها بطارية جديدة وأخذ يسير من غير هدى ولا معرفة إلى أين يريد أن يذهب، فوجد نفسه في منطقة ذات عمارات شاهقة محاطة بسيارات؛ فقال في نفسه "كيف استطاع هؤلاء أن يبنوا مثل هذه العمارات، وأنا لم أتمكن من صيانة وتعديل منزلي إلا بشق الأنفس ؟".

ثم قال: «كيف اشترى كل هؤلاء السيارات الفارهة، وأنا أعاني من هذه السيارة القديمة، ولا أستطيع أن اشتري سيارة جديدة، وعندما اشتريت سيارة للعائلة أجد نفسي أدفع فيها شهريًا مبلغًا كبيرًا يؤثر في ميزانية المنزل ؟».

"أين يذهب كل هؤلاء عندما يريدون أن يتطببوا ؟ هل يذهبون إلى المستشفيات الحكومية، أم للطب الخاص ؟ ومن أين يدفعون ؟".

"وابناءهم الطلبة أين يدرسون ؟ إلى أي المدارس يذهبون ؟ وفي أي الجامعات يدرسون ؟ وما تكاليف كل هذه المدارس والجامعات ؟".

وأسئلة كثيرة تراوده وهو يسير بالسيارة القديمة جداً ذات البطارية الجديدة، المبلغ الذي يستلمه شهرياً لا يفي بالاحتياجات الأساسية، وهو اليوم في الأسبوع الأول من الشهر، فماذا يمكن أن يفعل في الأيام القادمة ؟ هل يعاني كل المتقاعدين من نفس هذه المشكلة أم هو وحده فقط ؟

عندما فكر في التقاعد أعتقد أن المؤسسة التي يعمل بها سترفض ذلك، لأنه شخصية مهمة ويجب أن يبقى، ولكن تفاجأ بأن المؤسسة لم تودعه حتى ولم تعمل له حفل توديع، وإنما أخذ حقيبته وخرج من غير أن يسلم عليه أحد.

عندما تقاعد أعتقد أن بعض المؤسسات والأصدقاء الذين كانوا يتصلون به باستمرار ويقولون له «أنت خسارة في هذا المكان، لو كنت عندنا لمنحناك رتبة أعلى أو وظيفة مناسبة»، وذلك لقدراته وإمكانياته ومهاراته التي استطاع من خلالهما أن يقوم وأن يقدم العديد من الأعمال التي لم يستطع أن يقوم بها أحد، ولكن عندما تقاعد لم يتصل به أحد، فظل ينتظر ربما اليوم وربما غداً ولكن لا أحد، ومر شهر وشهور ولا أحد يتصل وكأنه

كان نكرة، حتى الذين كانوا يتواصلون معه أثناء وجوده على الكرسي تنكروا له، فلا يتصلون حتى للسؤال عن صحته، وعندما يتصل هو بهم يتأففون ويعتذرون لأنهم مشغولون ولن يتمكنوا من الحديث معه الآن، لذلك سيعاودون الاتصال به، ولكن لا أحد يتصل، وهكذا تمضي الشهور والسنين.

يعود المتقاعد عبد اللّه إلى المنزل، وهو يحمل همومًا وأثقالاً على كتفه ولا يعرف لمن يقولها وكيف يقولها، ولكنها تتراكم في قلبه يومًا بعد يوم، فهو لا يريد أن يثقل على زوجته ولا على عياله، فيصمت ويبكي عندما يسجد للّه سبحانه وتعالى لتنتقل قضيته إلى السماء.